لقاء قناة بلادي الفضائية بالدكتور إبراهيم الجعفري
2011/4/9
(محمد باقر الصدر رمز إنساني)

المقدم: كيف تنظرون إلى قدرة السيد محمد باقر الصدر الاستشرافية، والواقع الذي نعيشه.. وهل ثبتت هذه الرؤية؟

الجعفري: للسيد محمد باقرالصدر (قدس الله نفسه) ميزات كثيرة، لعل من أبرزها الرؤية الاستشرافية للمستقبل، منذ نهاية الخمسينيات وبداية الستينيات كان قد نظر إلى آفاق المستقبل، وعكس تلك النظرة على بواكير الفكر الذي خطه سواء كان في الفكر العام، كما في كتابيه (فلسفتنا، واقتصادنا)، أو الفكر الخاص، وما كتبه للحركة الإسلامية، وأقصد بها حزب الدعوة الإسلامية، أو في أحاديثه، وكيف كان ينظر إلى المستقبل، فعندما نأخذ بنظر الاعتبار أن السيد الصدر يكتب ما يكتب وفي ذلك الوقت لا صحوة ولا ثورة ولا دولة تؤمن بهذه الأفكار، ومع ذلك كان مملوءاً بالثقة بالمستقبل، وإن هذه السفينة ستحط رحالها على شاطئ التطبيق، يتحدث مثلاً عن الفكر الماركسي، وهو في شدة عنفوانه، وكان يقرأه على أنه فكر لا يصمد أمام تطورات الحياة، وسينتهي إلى طريق مغلق بنقاش موضوعي، كما أنه كان يقرأ التصدّع الذي سيحصل في الفكر الرأسمالي وهو اليوم الفكر الاقتصادي.. الرأسمالي هو الآخر يعاني من تصدّعات كبيرة، فالسيد الصدر كان يقرأ منذ ذلك الوقت، ويقرأ أن الأمة بعد أن فارقت تراثها وتأريخها وإسلامها العزيز وقيمها وأخلاقها ستعود، ويعبّر عنها أنها الأمة التي تتطلع إلى السماء، ويقصد بذلك إلى الإسلام...
منذ أكثر من ستين سنة وإلى اليوم ثبتت صحة القراءات الاستشرافية للسيد الصدر، وأصبحت واقعاً.. أمس الصدر أصبح حاضراً اليوم في فكر السيد الصدر.. في ذاك الوقت كان يقرأ غداً مستقبلاً يستشرفه، وأما اليوم فقد أصبح واقعاً، في الوقت نفسه كان يعكس هذه القراءات الاستشرافية على خطاباته في الثمانينيات، ولم تكن هناك ملامح قيام دولة وسقوط النظام المقبور، ولم نكن نبتلى على مستوى التعايش الذي نحتاجه في قيام الدولة العراقية الجديدة بين السنة والشيعة.. بين المسلمين وغير المسلمين.. تراه يصدح بصوت عالٍ:
(أنا معك يا ولدي، ويا أخي السنيّ، وأنا معك يا أخي، وولدي الشيعي بمقدار ما أنتما مع الإسلام)
وكأنه أودع خطاباته حمولة مستقبلية..
إن هذا النوع من الفكر لابد له أن يشق طريقه.. رجل يعيش في النجف وهي من عواصم التشيّع، ورجل ينتمي إلى عائلة عربية شيعية، وعالِم ومرجع في الحوزة الشيعية، ومع ذلك يتكلم بهذه الطريقة هذا يدل على استشراف للمستقبل ليس هذا فقط بل يدخل في تفاصيل الاستشراف عندما يقول: "ما عُرضت علينا الدنيا كما عُرضت على هارون الرشيد، ولم نسجن الإمام الكاظم (عليه السلام)" كأنه أراد أن يحذر، ويقرع أجراس الخطر بأنه عندما يتم التحول، وعندما يتحول الإنسان من

المعارضة إلى الحكم عليه أن لا يختلف مع الرشيد فكراً دون أن يكون هارونياً في سلوكه، يُؤثِر الدنيا والقصر والترف وما شاكل ذلك، ويحارب هارون بالفكر، ويتقلد خطى هارون بالممارسة.. ما عُرضت علينا الدنيا كما عُرضت على هارون الرشيد، ولم نسجن الإمام الكاظم (عليه السلام).. هذه استشرافاته، وهذه ما تأتى إلى الإنسان لمجرد أنه مثقف، ولا حتى لأنه مفكر إنما ينظر بنور الله أي كان صادقاً حين فكّر، وحين نظّر.

المقدم: هل كان هذا يثير حفيظة الأنظمة السياسية القائمة آنذاك؟

الجعفري: لقد بنى السيد الصدر على المواجهة، ولم يهادن أحداً لا على مستوى الفكر، ولا على مستوى المؤسسات، ولا على مستوى الوضع السياسي الذي كان قائماً.. منذ البداية عزم الصدر على أنه يشق طريقه، وخطّط لأن يمضي بهذا الطريق إلى نهايته؛ لذلك لم يتردد، ولم يتراجع حتى اللحظة الأخيرة، ومن يراقب مسيرة السيد الصدر يجد أنه يعطي فكراً وتنظيراً جديداً لكنه ليس نقيضاً إنما يطوّر نظريته مع توالي الزمن، وتلك هي حالة توالٍ وتواصل مستمرتين، كلما ينفتح على مرحلة جديدة ليعطيك تنظيراً جديداً يربط الواقع بالمبادئ، ويستحثك على أنك تمشي بالاتجاه نفسه؛ حتى تصنع واقعاً جديداً على ضوء النظرية نفسها، فأنت تتطور على ضوء فكر السيد الصدر، المستوحى من فكر الإسلام، لكن قدرته على التنظير والاستنباط، وما يضعه من مؤونة فكرية لمن يريد أن يمشي ليس فقط إسلامَ العاطفة وإسلام الفكر، فهو يجد في فكر السيد الصدر مؤونة حقيقية لأن يقطع ذلك الطريق بكل تلك الملابسات.

المقدم: ألا تعتقد أن في ذلك نوعاً من الإرادة الربانية فالتأريخ الذي سقط به هو نفسه الذي قتل فيه السيد الشهيد محمد باقر الصدر (قدس الله نفسه الزكية)؟

الجعفري: من دون شك أن مشيئة الله - سبحانه وتعالى - اقتضت، فنحن يجب أن نعطي الغيب مساحة في تفكيرنا وحركتنا، وهذه الإطلالة الغيبية تنفذ إلى الناس لئلا يستغرقوا كثيراً في الماديات والحس على حساب الغيب، فعلى الإنسان أن يبقى متوازناً، ويكون حسياً، ويتعامل مع المادة، ولا يتطاول، ويلغي يد الغيب الحانية التي تعمل عملها، وهذا ديدن صحيح وطبيعي:
((وأن ليس للإنسان إلا ما سعى وإن سعيه سوف يرى)).

المقدم: أيام كنتم في المعارضة.. هل كنتم تتوقعون أن يسقط صدام بهذه الطريقة العسكرية الأجنبية؟

الجعفري: أما عن السقوط فقد كنت واثقاً أن النظام سيسقط أما أن يسقط بالطريقة العسكرية التي سقط بها، وتكون القوات الدولية وقوات التحالف هي التي تقوم بالمساهمة في إسقاطه فليس هذا فقط ما كان في بالنا بل لا يوجد أحد وضع هذا الاحتمال بحسب تجربتي ومشاركتي في كل مؤتمرات المعارضة العراقية.
كان متوقعاً أن يسقط بموت طبيعي أو اغتيال أو حرب داخل العائلة، وما كان في بال أحد من المعارضة العراقية أن القوات والدول التي ساهمت بالإتيان به إلى سدة الحكم تقف مضطرة إلى جانب الشعب العراقي الذي واصل مواجهته لصدام.. وهذا يجعلني أتذكر الآية القرآنية الكريمة:
((ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب)).

فهذه الطريقة من الإسقاط لم تكن ضمن المحتسب البشري المحدود إنما جاءت ضمن المحتسب الإلهي غير المحدود.

المقدم: هل كان تتوقع أن يفرّ صدام إلى مكان ما.. هل كانت هذه ضمن الأجندات في تلك الفترة؟

الجعفري: صدام كان يعلم طبيعة الجرائم التي ارتكبها، وما سيؤول إليه مصيره، فكان عارفاً إما أن يبقى حاكماً متسلطاً دكتاتوراً غير محدود، وإما أن تضيق به الدنيا بما رحبت؛ لأنه اعتدى على العراقيين بمختلف فنون الفتك والقتل والقمع والتعذيب والتشريد والمقابر الجماعية والكيمياوي والاغتيالات، وكان يعلم ما فعل.. وهناك حادثة أن علي حسن المجيد نقل عن عدي لصدام بأن عدي يريد أن يملك منطقة الرضوانية، فقال له صدام: يملك الرضوانية ماذا يفعل بها.. نحن إذا كنا بالحكم فالعراق كله لنا، وإذا لم نكن في الحكم لا أحد يستطيع أن يجد أثرنا.. وهذا ما جعله يتشبث بأذيال الدنيا حتى اللحظة الأخيرة قبل أن يسلموه إلى القضاء العراقي كان يفاوض، ويقول أنا مستعد لأن أعمل، وأقدّم تنازلات، وأعطي النفط، فقالوا له: انتهى أمرك.

المقدم: انتهت فترة النظام الشمولي والنظام الدكتاتوري، وجاءت بعدها فترة مجلس الحكم الانتقالي، وكنتم أول رئيس لهذا المجلس.. كيف كانت أعمال هذا المجلس، وكيف قيّمتموه في تلك الفترة؟

الجعفري: حين نتحدث عن مجلس الحكم علينا أن لا ننسى الشخصيات الوطنية العراقية التي عملت في الظل، فنحن أمام معركة وطنية عراقية ينضوي تحت لوائها الوطنيون العراقيون من مختلف الاتجاهات؛ حتى يرفعوا عن العراق كاهل الاحتلال، وضمن هذه النظرية لم نكن نعمل كمسؤولين، إنما كانت لدينا رؤية فنحن لم نتقبل أن تكون الحرب أداة للتغيير، نعم.. نحن مع التغيير، وقدمنا سيلاً من الشهداء من أجل أن التغيير لكن ليس عن طريق الحرب؛ لأن كل صفحات الحرب قذرة؛ لذا يتجنب القائد الناجح الحرب إلا أن يضطر إليها اضطراراً، وفي الوقت نفسه سيعقب الحرب احتلال، وحصلت الحرب، وحصل الاحتلال بعد ذلك، وهذا كان متوقعاً لكن عندما أصبح الاحتلال واقعاً أصبحنا نحن أمام أمر واقع، ماذا نعمل إلى جانب إخواننا الوطنيين من مختلف الاتجاهات؛ حتى نقصّر زمن الاحتلال، ونعطي انعكاسات إلى الأمم المتحدة؛ حتى تطور قوانينها للصالح العراقي من قانون 1483 إلى 1511 إلى 1546 إلى آخر القوانين..
يجب أن نعمل على تقليص مساحة الاحتلال، وعملنا بهذه الاستراتيجية، ودخلنا إلى مجلس الحكم، وأصبح إطار ما يسمى بمجموعة السبعة، ثم مجموعة التسعة، وكنا تسعة رؤساء، وعلى تراتبية الأحرف الأبجدية، وكنت فعلاً الرئيس الأول وفي الشهر الأول وضعت في حسابي الطموح أن أؤسس للدستور، وأنفتح على الدول العربية وجامعة الدول العربية، وأشكّل الحكومة، كل هذا كان في شهر واحد، وحققنا هذا، وأعطينا نمطية وطنية وسياقات وطنية وخطاباً وطنياً، وبدأت مشكلة الصراع بالحجم الوطني في مقابل الحجم الاحتلالي إذا صح التعبير.. فنحن كنا أمام إرادة مشرعنة دولياً، وأمام حاكم مدني معترف به دولياً، في الوقت نفسه نريد أن نقحم الحجم الوطني، وأن يأخذ طريقه، ويستقطب، ويمتد، ويتولى إدارة البلد بإرادة وطنية.
العراق الآن في نظر هؤلاء الذين لم يقرأوه قراءة صحيحة بمعاييرهم قفز من الخط الخلفي في نظرهم إلى الخط الأمامي، وسيكون العراق الجديد أكثر استقراراً وتعاطياً بالديمقراطية.

المقدم: ربط العراق بالأنظمة العربية وهناك تغيرات سياسية سريعة مثل تهاوي الأنظمة، وهذا يعني أن العراق أصبح من أقدم الأنظمة العربية في المنطقة.. كيف تعلّق؟

الجعفري: أنا لا أقسّم أنظمة العالم على أساس ملكي وجمهوري، فهذا التقسيم تقليدي وارد، أنا أقسمها تقسيماً مستقراً وقلقاً.. النظام عبارة عن مثلث إذا وضعته على قاعدته لا يقع، وهذا نظام مستقر، وإذا قلبت المثلث، وأوقفته على ارتكاز واحدة يترنح، وبأبسط شيء يقع وهذا قلق.. فمثلث الحكم إذا اتخذ من الجماهير قاعدة له فهو نظام مستقر ملكياً كان أم دستورياً أم جمهورياً دستورياً، وإلا فالدكتاتور هو الحاكم مثلما كان لدينا في العراق، فهو الوحيد في الجيش والوحيد في الحزب

والدولة هذا معناها أن مثلث الحكم قاعدته أعلى، ورأسه إلى الأسفل، فهذا يترنح، ويسقط النظام لا محالة.
التجربة السياسية في العراق قامت على أساس تأصيل النظام على قاعدة الشعب، ومادام الشعب هو القاعدة، فالنظام يأخذ صفة الاستقرار، ويكون راكزاً والشعب يريده.
عندما دخلنا في عولمة الرأي العام، وحقوق الإنسان، وعصر الاتصالات السريعة باتت صحوة التغيير وصحوة الإصلاح تنتقل بشكل سريع جداً من بلد إلى آخر، ومنطلق التظاهرة وهو القاعدة الشعبية، والشعب بدأ يثور على القمم المزيّفة التي تسلطت على الشعب؛ لذلك ترى شعارهم (الشعب يريد تغيير النظام)، وتجد تظاهرات في أنظمة أخرى (الشعب يريد إصلاح النظام) وهذا شيء جميل مثلما حدث في العراق، فالشعب يشخّص الحكومة، والحكومة تشخّص ما يشخّصه الشعب..
كلمة الإصلاح لا تحتمل إلا اتجاهاً واحداً؛ لذا فكل إصلاح تغيير، ولكن ليس كل تغيير إصلاحاً فقد يكون التغيير إفساداً.
علينا أن نحتضن هذه الإرادة الوطنية المخلصة، ويجب أن ندقق في الشعارات المطروحة، ونصغي لها، ونستعين بشعبنا.

المقدم: هل تعتبر الثورات التي حصلت في الوطن العربي بشكل عام نوعاً من الحمى أو العدوى كما كانت حمى وعدوى الدكتاتوريات في الوطن العربي؟

الجعفري: لنتجنب كلمة عدوى وحمّى؛ لئلا نوحي من حيث لا نقصد إلى أنها حالة غير صحية، ولنقل صحوة الشعوب من منطقة إلى أخرى، فالنظام أو رأس النظام يمثل حالة دكتاتورية مَرَضية رابضة وجاثمة على صدر الشعب، لكن الشعب عندما يتلقى ثقافة الثورة، وثقافة التغيير سيهبّ، ويثور لتغيير واقعه.
الأنظمة الدكتاتورية أخّرت شعوبها عقوداً إن لم قروناً، وأتصور أنه آن الأوان لإزالة الدكتاتورية؛ والنهوض بصورة متتالية بالبلدان.

المقدم: هل تعتقدون أن العراق عاد إلى منظومته الإقليمية أم سيعود؟

الجعفـري: العـراق كـشعب وثقافـة وتـاريخ، دولـة مؤسـسة لمنظومتهـا العربيـة والإسلامية والدولية، نعم.. الأنظمة التي تعاقبت على حكم العراق بطريقة أو أخرى عملت على فصم هذه العلاقة، وحجب العراق عنها، والآن من جملة الانتصارات التي حققها الشعب العراقي هو أن يعيد العراق إلى هذه المنظومات باعتباره معبّراً أميناً عن إرادة الشعب العراقي، والشعب العراقي شعب يتفاعل مع هذه الدول، ويتعاطف معها، ويقوّيها، ويتقوى بها فهو من المؤسسين، وهو الدولة الثانية في جامعة الدول العربية بعد مصر عام 1945 تشكلت جامعة الدول العربية وعام 1946 كان العراق الرقم الثاني، وكذلك من الدول المؤسسة للأمم المتحدة والدول المؤسسة للمؤتمر الإسلامي، فالعراق دولة فاعلة له تاريخه، وله ثرواته، وله خطابه، وثقافته، ولا يستغني عنه، وهو دائماً حاضر بالخير، نعم.. في حالة استثنائية حوّله النظام المقبور إلى بؤرة توتر، واليوم أصبح بؤرة طمأنينة.
العراق بلد مسالم، ويريد أن يعيد نفسه إلى المنطقة كبؤرة طمأنينة، وليس بؤرة توتر كما كان في زمن النظام المقبور.